الفصل الرابع

شعراء المعارضة

obeikandl.com

obeikandl.com

ما هي المعارضة؟ ومَنْ هم شعراؤها؟

وأيّة معارضة نقصدها ونرجوها؟

ومتى تكون المعارضة مقبولة؟ ومتى تكون مرفوضة؟

وما مدى نجاحها أوْ إخفاقها فيما تصبو إليه؟

وما هي النتائج المترتبة عليها في كلتا الحالتين؟!

لعلَّ أسوأ شرائح المعارضة أولئك الذين يعارضون من أجل المعارضة، أو الذين يتلهفون على مقاعد السلطة ويسيل لعابهم من أجل كراسي الحكم، فإن أُعطوا منها رضوا وإنْ لم يُعطوا إذا هم يسخطون! ومعارضة هؤلاء معارضة حقيرة الهدف وخسيسة الغاية، لا نوافقهم فيها إطلاقاً. وهناك معارضة تُضعِف الدولة أمام خصومها، وقد تهدد وجودها ورسالتها، وهذه معارضة مشبوهة ومغرضة وسيئة بلا ريب. وسائر العقلاء يرفضون أيّة معارضة من هذا القبيل.

كما أسلفنا الحديث عن تاريخ الاستبداد أو الإقطاع السياسي والأنظمة الديكتاتورية في الأمة العربية والإسلامية، ومواضع الانحراف عند الحكام والولاة ... كل هذا من شأنه أن يخلق ألواناً عديدة من المعارضة يضطلع بها نفر من المُصلِحين والمجاهدين سواء كانوا علماء أوْ أدباء أوْ كُتاب، فلا يألون جهداً في مقاومة الفساد السياسي، ومناوأة الفرعونية والهامانية والقيصرية مهما كان الثمن، وقد قُتِل من هؤلاء المجاهدين من قُتل وعُذّب من عُذِّب، وبقيت حياتهم أُسوة حسنة لدعاة الخير وحماة الحق.

هذا، ومنذ زمن بعيد اختلفت وجهات النظر حول مقاومة أو معارضة الاستبداد السياسي والأنظمة الديكتاتورية، ومنازعة الإمام الجائر .. ما بين مؤيد، ومعارض، ومتحفظ ... فما هو الحُكم الشرعي الصواب في هذه المعارضة؟!

هناك فتوى جبانة مضللة تلبس الحق بالباطل، وتحرف الكَلِمَ عن مواضعه، تحت

عنوان: هل تجوز منازعة الإمام الجائر؟ جاءت فيها هذه الكلمات:

«... ذهبت طائفة من المعتزلة، وعامة الخوارج إلى منازعة الإمام الجائر، وأمّا أهل الحق –وهم أهل السنة والأثر– فقالوا: الصبر على طاعة الجائر أولى، والأصول تشهد أن أعظم المكروهين أولى بالترك. فقال عياض: وأحاديث مسلم كلها حجة على ذلك كقوله ﷺ: «**أطعهم وإن أخذوا مالك، وضربوا ظهرك**»! وقال الطرطوشي في سراجه: حديث أبي داود عظيم الموقع في هذا الباب، قال رسول الله ﷺ: «**يطلبون منكم ما لا يجب عليكم، فإذا سألوكم ذلك، فأعطوهم ولا تسبوهم**». أيْ ندفع لهم ما طلبوا من الظلم، ولا ننازعهم، ونكف ألسنتنا عنهم. وقال ابن العربي: السلطان نائب رسول الله ﷺ يجب له ما يجب لرسول الله من التعظيم والحرمة والطاعة!. ويزيد على النبيّ ﷺ لا بحرمة زائدة، لكن لعلّةٍ حادثة بأوجه، منها الصبر على أذاه ويدعى له عند فساده بصلاحه.

وقيل لمالك: الرجل عنده علم بالسُنّة أيجادل عنها؟ قال: يخبر بالسنّة، فإنْ سُمِع منه وإلاَّ سكت! قيل: فينصح السلطان؟ قال: إن رجا أن يسمعه! وإلاَّ فهو في سعة».

يُعَقِّب على هذه الفتوى الشيخ محمد الغزالي، قائلاً: (الواقع أن الجُبن وحب الحياة ومهادنة الضلال تقطر من كلمات هذه الفتوى، وما تُربِّي إلاَّ أذناباً للحاكمين، وحواشي للمستبدين .. وهي تصوّر الفكر السائد عند جمهور من المتدينين وهو الفكر الذي حاربهُ زعماء الإصلاح وأئمة العلم وبينوا بعده السحيق عن دين الله.

وما أدري كيف يكتب هذه الكلمات من يعرف أن الدين النصيحة، ومقاومة المنكر! وأن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر! وأن الأُمة إذا هابت أن تقول للظالم يا ظالم فقد ماتت موتاً مادياً وأدبياً ..

هل قرأ مصدر هذه الفتوى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

إننا لم ننصره من عدة قرون، لشيوع الظلم بين المسلمين، وكثرة من يداهنون الجائرين ويأكلون على موائدهم!

فيهود إسرائيل –وهم من هم– دعا القاضي «كاهان» رئيس الحكومة فمثل بين يديه، ثم دعاه مرة أخرى وأنذره إن تأخر، فجاء رئيس الحكومة طائعاً، ثم صدر الحكم ضده وضد من معه.

وقال الناس: يستحيل أن يقع هذا في بلد عربي! وأردفوا ساخرين: الماء لا يجري إلى أعلى! قلت: وبركات السماء لا تنزل على الأدنى، إنّ الاستبداد السياسي أعمى المسلمين عن حقائق الكتاب والسنة فغشيهم من الضياع ما غشيهم .. والإصلاح في الميدان السياسي كالإصلاح في الميدان العقائدي له رجاله المرموقون .. وفي عصرنا هذا استُشهد رجال كثر وهم يحاربون الاستبداد السياسي، ويستنقذون حقوق الإنسان من براثن الجبابرة).

ولِمَ لا يقف المصلحون من العلماء والمفكرين والأدباء والكُتّاب والشعراء وحتى أهل الفن في وجه الحكم الفردي الديكتاتوري، والاستبداد السياسي، والطغيان على حقوق الشعوب، وأن يكونوا دائماً في صف الحرية السياسية المتمثلة في الديمقراطية الصحيحة غير الزائفة، وأن يقولوا بملء أفواههم للطغاة: لا، ثم لا. ولا يسيروا في ركاب ديكتاتور متسلط وإنْ أظهر وِدَّه لهم، لمصلحة موقوتة، ولمرحلة لا تطول عادة، كما هو المجرّب والمعروف.

إنَّ الحديث الشريف يقول: «**إذا رأيتَ أمتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد تُودِّع منهم**». فكيف بنظام حكم يقهر الناس على أن يقولوا للظالم المتجبّر: ما أعدلك وما أعظمك، أيها البطل، والمنقذ، والمحرّر؟!

وإنَّ القرآن الكريم أعلن حملة قاسية على الطغاة المتألّهين في الأرض من أمثال

نمروذ وفرعون وهامان وغيرهم، وذمّ معهم من يتبعونهم ويدورون في فلكهم، ولهذا ذمّ الله قوم نوح بقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾.

وذمَّ عاداً قوم هود بقوله: ﴿وَاتَّبَعُوٓا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

وقال عن ملأ فرعون: ﴿فَاتَّبَعُوٓا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾، ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

لكن، برغم كل الأنظمة والحكومات الديكتاتورية التي أنشبتْ أنيابها في تاريخنا القديم والحديث، ورغم طوابير المنافقين والمتسلقين والمجدفين والمداهنين التي لا يحدّها حد .. إلا أنّنا لم نعدم «كلمة الحق» و«الرأي الآخر» و«الصوت المعارض» في مختلف الميادين، حتى وإن لم يستطع هؤلاء المصلحون «المعارضون» أن يغيّروا دفّة الحكم وخارطته السياسية، فيكفيهم شرف المحاولة، وما على الرسول إلاّ البلاغ.

نحن –إزاء هذه القضية– لن نخرج عن ميدان الشِّعْر والأدب، الذي هو محور هذه الدراسة، فعندما نقلّب كُتب الأدب ودواوين الشّعر، نجد الأمثلة الكثيرة على تواتر شعراء المعارضة أو شعراء الرفض الذين انتشروا في مختلف الأزمنة وشتى الأمكنة، فمنذ أن وُجِدَ الشعراء على الأرض، وهم يعلنون عن رفضهم الشديد ومعارضتهم المستمرة لكثير مما يجري حولهم من أحداث وقضايا، وقد تتغير مسميات (شعر المعارضة) بحسب لونه ودرجته أو المناسبة التي قيلت فيه، أو الرسالة التي كان يسعى إليها الشّاعر ... فالفخر والهجاء والمدح والنقائض والمكتئبات كلها تحمل في طياتها من ألوان الرفض والخروج، وأشكال المقاومة والمناوأة .. فالشّاعر العربي جُبِلَتْ نفسه الأمّارة بالشّعر على خلق هذا اللون الأدبي «المزعج» حتى إنْ لم تكن له مناسبة أو ضرورة، بحكم الطبيعة النفسية المصاحبة له! وأحياناً وجد نفسه مشدوداً إليه شداً، ومفروضاً عليه فرضاً، من أثر البيئة القاسية التي نشأ فيها، والظروف الاجتماعية والسياسية المحيطة به من كل جانب.

قـــالوا جُننـــت؟ فقلـــتُ كـــلاَّ ... وربي مـــا جُننـــتُ ولا انتشـــيتُ
ولكنـــي ظُلمـــتُ فكـــدتُ أبكـــي ... مـــن الظلـــم المبـــينْ، أو بكيـــتُ
فـــإنَّ المـــاء مـــاء أبي وجـــدي ... وبئـــري ذو حفـــرتُ وذو طويـــتُ

لعلَّ الصراع القبلي الذي شهده العصر الجاهلي حرَّض الشعراء على المبارزة الكلامية والانتصار لمفهوم القبيلة، لم يختلف كثيراً في العصور الإسلامية المتعاقبة، خاصة بعد سنة ٤٠ هجرية، عندما تحولت الأمة من خلافة راشدة إلى مُلك عضوض دعائمه القبلية والعصبية والاستئثار والاستبداد، وكان طبيعياً، وقد تغيرت القاعدة السياسية، أن تنمو في هذه التربة ألوان عديدة من المعارضة، وأن ينبت فيها أجيال متعاقبة من شعراء الرفض، في مقابل شعراء البلاط .. فقد وقف «الكُميْت الأسدي» شاعر الهاشميين، في مواجهة «الأخطل التغلبي» الذي استأجره بنو أُمية ليكيل لهم المدائح، ويزود عنهم وعن سياستهم!

ثم إذا نظرنا إلى العصور المتعاقبة، وجدنا الأمر يزداد سوءاً، حيث ترهَّل كيان الأمة، وانتابتها الأمراض، فانفرط عقدها، وهانتْ في عين أعدائها المتربصين بها

أوليس هذا التراجع المستمر والانحطاط الشنيع في شتى الميادين وكافة المجالات خليق بأن يُقابل بمعارضة شديدة من الشعراء، ويحوّلهم إلى فرق ومذاهب بمختلف ألوان الطيف العقدية والفكرية والسياسية والكلامية .. وهذا الذي حدث بالفعل، حتى صارت الأمة الكبيرة الواحدة دويلات وطوائف عديدة، تتناوب شئونها وتتولى أمرها الصبيان والعبدان والموالي والخدم! وهذا الذي جعل «المتنبي» يأبى الذهاب إلى الأندلس، لأنه أدرك تفاهة حكامها وهشاشة شأنهم من ضخامة الألقاب التي يحملونها، وكأنّ الشاعر يصف أحوال العرب في عصرنا هذا لا في عصره هو، عندما قال:

في كـــل أرضٍ وطئتهـــا أُمَـــمٌ ... يقودهـــا عبـــدٌ كأنهـــم غـــنمُ!

حول هذا الموضوع يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه (قذائف الحق): «إن جماهير العرب عطشى إلى الحرية والكرامة، ولقد بُذِلت جهود هائلة لمنعها من الحق والجد وتعويدها عبادة اللذة إلى جانب عبادة الفرد، ولكن جوهر الأمة تأبى على هذه الجهود السفيهة، وإن كانت طوائف كثيرة قد جرفتها هذه المحن النفسية فهي تحيا في فراغ ومجون مدمرين، لا تبقى معهما رسالة ولا ينخذل عدو .. ومن ثم كان العبء على المصلحين ثقيلاً ولكن ما بدّ منه لحماية حاضرنا ومستقبلنا. ولقد تبعت الصراع بين الحكام المستبدين والرجال الأحرار منذ نصف قرن، ودخلت في تلك المعمعة لأذوق بعض مرّها وضرها .. فإنني أدعو إلى مقاومة الاستبداد السياسي، ومنذ أمسكت بالقلم لم أتريث في مهاجمة الجبابرة والإعانة عليهم بالتافه والجليل.

ولا أزال أُكرِّر أن الحريات المقررة هي الجو الوحيد لميلاد الدين ونمائه وازدهاره .. وإن أنبياء الله لم يضاروا بها أو يهانوا إلاَّ في غيبة هذه الحريات، وإذا كان الكفر قديماً لم ينشأ ويستقر إلاَّ في مهاد الذل والاستبداد فهو إلى يوم الناس هذا لا يبقى إلاَّ حيث تموت الكلمة الحرة وتُلطم الوجوه الشريفة وتتحكّم عصابات من الأغبياء أو من أصحاب المآرب والأهواء .. نعم ما يستقر الإلحاد إلاَّ حيث تتحول البلاد إلى سجون كبيرة، والحكام إلى سجّانين دُهاة.

من أجل ذلك ما هادنّا –ولن نهادن إلى آخر الدهر– أوضاعاً تصطبغ بهذا العوج ويستشري فيها ذلك الفساد.

إنَّ إذلال الشعوب جريمة هائلة، وهو في تلك المرحلة النكدة من تاريخ المسلمين عمل يفيد العدو ويضر الصديق .. بلْ هو عمل يتم لحساب إسرائيل نفسها .. فإنَّ الأجيال التي تنشأ في ظل الاستبداد الأعمى تشبّ عديمة الكرامة، ضعيفة الأخذ والرد .. ومع اختفاء الإيمان المكين والشرف الرفيع، ومع شيوع النفاق والتملق والدناءة، ومع هوان أصحاب الكفايات وتبجح الفارغين

المتصدرين .. مع هذا كله لا تتكون جبهة صلبة، وصفوف أبية باسلة. وذلك أمل إسرائيل حين تقاتل العرب لأنها ستمتد في فراغ وتشتبك مع قلوب منخورة وأفئدة هواء! والواقع أن قيام إسرائيل ونماءها لا يعود إلى بطولة مزعومة لليهود قدر ما يعود إلى عمى بعض الحكام العرب، المرضى بجنون السلطة وإهانة الشعوب. ولو أنصف اليهود لأقاموا لهؤلاء الحكام تماثيل ترمز إلى ما قدموا لإسرائيل من عون ضخم ونصر رخيص!».

خصائص شعراء المعارضة

إنَّ المتأمل في (شِعْر المعارضة) يلحظ أنه يمثل قاسماً مشتركاً بين شعراء العربية كلهم، فلا نكاد نجد شاعراً بريء من هذا المرض أو رُقي من هذا السّحر، بلْ أُصيبوا كلهم بإصابات بالغة، ولُدِغوا من ذات الجحر مرات ومرات، وكأنهم ولدوا في جحور الأفاعي، فما من شاعرٍ منهم إلاَّ اكتوى بناره، وتلظّى بسعيره، ودفع ضريبة ما جناه عليه لسانه، ونفسه الأمّارة بالشِّعْر، ورغم ذلك يُصرّ الشّاعر على معصيته، فلا يفارق الكأس إيّاها، فلا رجوع ولا إقلاع ولا ندم ولا استغفار، بلْ اقتراف المزيد من الذنوب والأوزار التي تصل إلى حد «المعلّقات» كما فعل الكُمَيْت الأسدي، ودِعْبِل الخُزَاعي، والعُرْجي، وأبو نواس قديماً، وكما فعل عبد الحميد الديب، والجواهري، والبردوني، وأمل دنقل، ونزار قباني، وبلند الحيدري، وأحمد مطر، وغيرهم في العصر الحديث.

(شِعْر المعارضة) في الأغلب يكون نتيجة أو ردّ فعلٍ من الشاعر للظروف الاجتماعية المحيطة به .. فقد يكون الشاعر مظلوماً، أوْ مضطهداً، أوْ منفياً، أوْ مطروداً، أوْ مسجوناً، أوْ مجروراً أمام حبل المشنقة، أوْ خلاف ذلك من المآسي التي حملتها لنا كتب التاريخ والأدب .. فماذا عساه أن يقول الشَّاعر حينئذ؟!

فمثلاً، ماذا نتوقّع من «البارودي» أن يقول وهو في منفاه في «سرنديب»؟ وماذا

ننتظر من «أحمد محرم» وهو يرى أُمته الجليلة القدر وقد تمزق أوصالها، وصارت فريسة وغنيمة باردة لأطماع الدول الكبرى؟ وبأيّ حق نمنع «حافظ إبراهيم» من أن يجأر من الاستعمار والفقر والجهل والغلاء؟ وكيف لا يسْخَر «عبد الحميد الديب» من المَلِك وحاشيته؟ وما العجب في أن يعلن «نزار قباني» نبأ وفاة العرب على العالم كله؟ ولِمَ لا يُطالِب «أحمد مطر» على صفحات الجرائد الحكّام العرب بالرحيل فوراً؟!

فلماذا -إذن- لا يضيق الشعراء ذرعاً بحكامهم الذين يسومون الناس سوء العذاب، والذين حولوا الأوطان إلى ملاجئ ومعتقلاتٍ وسجونٍ وزنازين ومقابر جماعية؟!

فالإسلام -كدين وتشريع سماوي لا ريب فيه- يدعو إلى التصدِّي بقوة للطغاة، ومقاومة الجبابرة والحكام الفاسدين بالنقد اللاذع تارة وبالخصومة تارة أخرى، معتبراً أن ذلك لوناً من ألوان الجهاد، فيقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه «من معالم الحق»: «أن ذِكْر الظالمين بآثامهم التي بعثت على الشكوى منهم ليس استثناء شاذاً عن قاعدة، بلْ هو اطراد مع قاعدة أخرى، وعمل بنصوص لا ريب فيها، تهدف إلى صيانة الأمة من البغي والعدوان ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾.

وذِكْر المجرم على سبيل التسلِّي والتلهِّي ليس بإيمان ولا إجمال .. فإنّ الواجب تتبعه بالنقد والصد، وتناوله بالخصام والملام، وإنّ الحملة على مثله دين!

مازال السؤال مطروحاً: من هم شعراء المعارضة؟ ومن هم أعلام هذا الفريق وروّاده في الوطن العربي؟ وما هي قضاياهم الأدبية والفكرية التي يحلّقون حولها؟ وما هي خصائصهم النفسية؟ وما هي أوطانهم أو الأمكنة التي يتواجدون فيها بكثرة؟ وهل هناك مواسم وأزمنة بعينها يُولدون فيها؟ وما هو القاسم المشترك بينهم في مختلف العصور؟ وما هي نظرة المجتمعات نحوهم؟ وما الوقود الذي

يشعل نيرانهم المستعرة؟!

الحقيقة أن (شعراء الرفض .. أوْ الشعراء المعارضين) لا تجمع بينهم أزمنة بعينها، ولا أمكنة بذاتها، فهم متناثرون أو متفرقون في سائر الأزمنة ومختلف الأمكنة، وإن كانت بعض الحقب الزمنية تشهد أسراباً منهم وأفواجاً غفيرة، وتضجّ بهم الحياة ضجاً، كتلك الحقب التي يسوسها الحكام الجبابرة والطغاة الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون .. وما أكثر هذه الحقب السوداء!

- الملاحظ في النماذج التي اخترناها من (شعراء المعارضة) أنهم -في الأغلب- لم يكونوا متصالحين مع المجتمعات التي عاشوا فيها، بلْ عاشوا منبوذين فيها! لأنهم عادة لا يعيشون في الحياة، ولكن يعيشون ضيوفاً على الحياة!

فإنْ حضروا لا يعرفهم أحد، وإنْ غابوا لا يسأل عنهم أحد .. فالكُميْت الأسدي، اغتيل ولم يُعثَر على جثته إلى اليوم! وعبد الحميد الديب لم يسمع أحد بموته بمستشفى قصر العيني إلاَّ بعد مرور أيام عديدة على وفاته! وفي ذات المستشفى مات أمل دنقل! ولا أحد يعرف سرّ اغتيال هاشم الرفاعي! وتضاربت الآراء حول مقتل راشد حسين!

- (شعراء المعارضة) مُسيَّرون لا مُخيّرون في هذا الأمر، ومُساقون إليه سوقاً، ومدفوعون إليه دفعاً، بسبب طبيعتهم النفسية القلقة، أو بفعل شياطينهم المردة، أو من قسوة الحياة، ووحشية المجتمع، وضراوة الأنظمة الحاكمة، ووعورة الطريق التي يسلكونها!

- (شعراء المعارضة) دائماً يظلوا في بؤرة الأحداث، ويحظوا بسمعة واسعة الانتشار، لكن الكتابة أو الحديث عنهم لا يكون في الوسائل والقنوات الرسمية، إنما يكون على استحياء وفي السهرات الخاصة، كما أن الحديث عنهم كثيراً ما يأخذ طابع التهكّم والسخرية والتقليل من شأنهم ، فمثلاً إذا جاء ذكر الشَّاعر «دعبل

الخزاعي» فأول ما يقال عنه: إنه كان سليط اللسان! وإذا ذُكِرَ «عبد الحميد الديب» فسرعان ما يقال عنه: كان صعلوكاً! ويقال عن «أمل دنقل» كان حاد المزاج أوْ لا يطاق! وهكذا ..

وفي حالة نفيهم أوْ سجنهم أوْ مصادرة إبداعاتهم، لمْ يخمد ذكرهم، بلْ تتسلّط عليهم الأضواء أكثر وأكثر .. فالممنوع مرغوب!

- (شعراء المعارضة) لا يُحسِنون الدبيب إلى القصور، ولا يتقنون التسرب إلى الطبقة العليا في المجتمع، لأن مثل هذه الأماكن تحتاج إلى نوع من المرونة واللباقة الاجتماعية أو ما نسميه «الخُبْث» وهؤلاء الشعراء غير مؤهلين نفسياً لأداء هذا الدور، فنفوسهم تمتعض كثيراً من هذا الدور الرخيص.

- (شعراء المعارضة) تغلب عليهم روح التمرد أو الثورة، وقد ساعدهم هذا على أن يكونوا خارجين على الأنظمة، أو غير منتمين إليها، وإذا انتموا فإن غالب انتمائهم يكون للأنظمة والأحزاب المشاقّة والمكايدة للأنظمة القائمة، ويكون انتماؤهم كذلك للكيانات التي تضع «العدل الاجتماعي» في برامجها من قريب أو بعيد كالخوارج والشيعة وبعض الأنظمة الثورية، أو متذبذبين بين القبول والرفض، أو منسحبين تماماً من كل ما يدور حولهم، لأن ما يدور حولهم أقوى منهم، ولأن من يقترب منهم قد يُصعق، أو يقصم بالسيف، أو يموت وهو منشور الذراعين!

- (شعراء المعارضة) يبدون ككتيبة من العُصاة، فقد أجبرتهم الحياة بصفة عامة على أن يُعبِّروا عن القلق والفقر والهروب والموت والأشياء القريبة التناول، ولهذا يعتبرهم النقاد من رواد «الواقعية العربية» فقد كشفوا عن الشاعرية الكامنة في الأشياء البسيطة، واقتربوا من لغة الحَكْي، وتنبهوا بشفافية إلى المرئيات التافهة، وأخذوا من الحياة شرائح ساخنة، ثم عبروا عنها من خلال نفوسهم .. ومن خلال نظرتهم الخاصة للحياة.

- (شعراء المعارضة) يهتموا اهتماماً خاصاً بظاهرة الموت في أشعارهم، لأنهم يشعرون أنهم أبناء الموت، وأن حياتهم دائماً في خطر، ومن ثم فإنّ خلاصهم الحقيقي لابد أن يكون خارج الحياة لا داخلها، وهم في الغالب لمْ يمارسوا الحياة في «دائرة الأدب» وهكذا عاشوا يتامى في الحياة. وفي الوقت نفسه كانوا مُطالَبين بالحصول على «تصريح إقامة» داخل مناطق بعينها في المجتمع.

- (شعراء المعارضة) لا نجد عندهم محاولة للعودة إلى أوطانهم في حالة الاغتراب أو النفي، مهما تباكوا عليها في أشعارهم، فسرعان ما نراهم يندمجون في المجتمع الجديد، لأنهم يجدوا أمنهم فيه، ولا أدلّ على ذلك من الجواهري، وبلند الحيدري، ومُظفّر النواب، ومحمود الدغيم، وأحمد مطر، وغيرهم ممن قضوا أعمارهم في المنافي والشتات.

- (شعراء المعارضة) لا يميلون إلى الغزل أو النسيب، فطبيعتهم الجادة، تمنعهم من ذلك، أو أنهم غير مؤهلين للتعامل مع النساء، فلم تلفت انتباههم المرأة في الحياة، بقدر ما لفت انتباههم الطغاة والمستبدين، وحكام الجور، وأمراء السوء!

- (شعراء المعارضة) لا يعتمدون الثرثرة الفارغة أو الإطالة الممجوجة في قصائدهم، كشعراء المدائح، بل يعتمدون على الإيجاز في الألفاظ وتكثيف المعاني قدر المستطاع.

- (شعراء المعارضة) لا تظهر قصائدهم في حينها في كثير من الأحيان، ولا تُسمع في الموطن الذي وُلِدتْ فيه، وربما لا يُعرف صاحبها، وقد تُنسَب إلى غيره، إذْ يغلب عليها صفة الكَتْمْ، فهي من الممنوعات أو المحظورات، فهي أشبه بالديناميت، أو كأنها زجاجات حارقة وعبوات ناسفة، كقصيدة «القدس عروس عروبتكم» التي لم يُعرف شاعرها الأصلي سنيناً طويلة، وقصيدة «رسالة إلى الفرعون» لعبد الرحمن العشماوي، التي مازال كثير من الناس يجهلون شاعرها،

كذلك «القصائد العشر في جراح مصر» التي نُسِبَتْ خطأً إلى هاشم الرفاعي»وغيرها من القصائد الجارحة!

- (شعراء المعارضة) يلجأون -أحياناً- إلى التعريض أوْ المواربة، بدلاً من التصريح أوْ الهجاء المباشر، لأن التعريض أهجى من التصريح -كما يقول ابن رشيق- لاتساع الظن في التعريض، وشدة تعلق النفس به، والبحث عن معرفته، وطلب حقيقته، كما رأى أن أجود ما في الهجاء أن يسلب الإنسان فضائله النفسية، وما تركب من بعضها مع بعض .. كما عرَّض الفرزدق بالخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، في «الميمية»:

وليس قولكَ مَنْ هذا؟ بضائرِهِ فالعُرْبُ تعرفُ منْ أنكرتَ والعجمُ!

أو كقول سيد قطب في قصيدته (هُبل .. هُبل):

هُبَل ... هُبَل
رمز الخيانة والعمالة والدجل
هُتافة التهريج ما ملّوا الثناء
زعموا له ما ليس ... عند الأنبياء
هو فاتح ... هو عبقري ملهمٌ
هو مرسلٌ ... هو عالمٌ ومعلمٌ
ومن الجهالة ما قتل !

- (شعراء المعارضة) يُركِّزون في أشعارهم على كل ما يُوحي بالزوال والفناء والقتل، فلعلّ الإحساس بالفناء والعدم وغلبة التشاؤم هو بمثابة تعبير عن حياتهم البائسة، خاصة عندما يكون الإنسان مُضيّعاً، أوْ طريداً، أوْ منفياً، وفاقداً للأمل في العدل الاجتماعي أو الحرية أو الديمقراطية التي عاش يحلم بها ويدعو إليها ..

كقول عبد الحميد الديب:

لـوْ ذاق هـذا الـورى معشـار محنتنـا ... مـا قـاربوا عيشـهم دنيـا ولا دينـا
لمْ نرتقـبْ فرجـاً في يـوم كربتنـا ... إلاَّ وكـان لنـا ضـيقاً يوافينـا

أو قول البردوني:

لكـن أنـا راحـل في غـير مـا سـفر ... رحلي دمي .. وطريقي الجمر والحطب
إذا امتطيـتَ ركابـاً للنـوى فأنـا ... في داخـلي .. أمتطـي نـاري وأغـترب
قـبري .. مأسـاة ميلادي عـلى كتفي ... وحـولي العـدم المنفـوخ والصُّـخب

أو قول يحيى السماوي:

لا تُحسـني بغـدي الظنـونَ فأمسُـنا ... دامٍ وحـاضرُ يومنـا مغلـولُ
إنِّي لأُبصِرُ في مرايـا حـاضري ... قـبراً بـه غـدُنا الـذبيحُ نزيـلُ

وقوله أيضاً:

يتيمـةٌ أنـا أيـامي، وأشرعتـي ... يتيمـةٌ، ويتـيمٌ بعـدي اليُـتْمُ!
وباتسـاع رغيـفٍ لا مـذاق لـهُ ... غـدي، وأضْـيَقُ منـه بيتـي العَـتِمُ!

- (شعراء المعارضة) تتميز أشعارهم بقوة الألفاظ، واستلهام الرموز خاصة الشخصيات التي تمثلت فيها البطولة والتضحية والشجاعة النادرة، والصدق، والعدل، والأمانة كالأنبياء والمجاهدين والثائرين، والنماذج الفذّة كعمر بن الخطاب، وأبي ذر الغفاري، وعلي بن أبي طالب، وخالد بن الوليد، والحسين بن علي، وعمر بن عبد العزيز، والعز بن عبد السلام، وصلاح الدين الأيوبي، ومحمد الفاتح، وعمر المختار، وعبد القادر الجزائري، وعز الدين القسَّام، والشيخ أحمد ياسين ... فمثلاً نجد حافظ إبراهيم يكتب «العُمرية»، وعبد المطلب يكتب «العلوية»، وعمر أبو ريشة يكتب «الخالدية»، وعبد الرحمن الشرقاوي يكتب

«الحسين ثائراً»، و«الحسين شهيداً»، والدكتور/ محمود خليل يكتب «إلى أن يقوم الحسين»، و«رسالة إلى سيف الله المسلول»، والدكتور الحضيري يكتب «ملحمة عمر المختار» ولفيف من الشعراء يكتبون «نهج البردة» وغير ذلك من الروائع التي جادت بها قرائح الشعراء. اسمع مثلاً إلى قول نزار قباني:

يا ابن الوليد، ألاَ سيفٌ نؤجّرهُ ... فكل أسيافنا قدْ أصبحتْ خشبا

أوْ قول يحيى السماوي:

من بعد «هارون الرشيد» ودينُنا ... دينارُنا، والموبقاتُ ضُرُوعُ!

من بعد «هارون الرشيد» وبابُنا ... مخلوعةٌ، وجدارنا مخلوعُ!

- (شعراء المعارضة) لا يجمع بينهم زمان بذاته، ولا تجمعهم عائلة أو قرية أو مدينة بعينها، إلاَّ «عائلة الرفض» أوْ «مدينة العصيان» فمثلاً نجد عمرو بن كلثوم في «العصر الجاهلي»، والكميت الأسدي في «العصر الأموي»، ودعبل الخزاعي في «العصر العباسي»، وحافظ إبراهيم في «العصر الحديث»، وأحمد مطر في «الألفية الثالثة»!

في الوقت ذاته نرى أبا القاسم الشابي «تونسياً»، والجواهري «عراقياً»، والبردوني «يمنياً»، وأمل دنقل «مصرياً»، وعمر أبو ريشة «سورياً»، وعبد الرحمن العشماوي «سعودياً» ومحمود مُفلِح «فلسطينياً». فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون! أوطانهم متباعدة، وأمهاتهم مختلفة، ولكن ... رسالتهم واحدة، وغايتهم مشتركة .. وكلهم في الهَمِّ شرق!

- (شعراء المعارضة) تتفاوت مستوياتهم الاجتماعية، فلا ينتمون جميعاً إلى القبائل ذات النفوذ أو الأسر الأرستقراطية، وليسوا كلهم من الصعاليك والبؤساء ... فإذا كان عمرو بن كلثوم من قبيلة ركعتْ وسجدتْ لها الجبابرة .. فإن منهم البائسين مثل: البردوني! وإذا كان نزار قباني عاش في أفخم قصور الشام وأجمل

فنادق لندن وباريس، فإنّ أمل دنقل عاش ومات على أرصفة القاهرة!

- إذا كان منهم من ترقّى إلى أعلى المناصب ونال أرفع النياشين كالبارودي الذي عمل وزيراً للحربية، وكان رئيساً للوزراء .. فإنّ عبد الحميد الديب لم يجد له أيّة وظيفة طوال حياته ولوْ بخمسة جنيهات .. حتى طُويَت صفحته المؤلمة!

- كذلك نجد التفاوت البعيد في هوياتهم مرجعياتهم الفكرية، فنجد منهم القوميين أمثال: السياب، ومحمود درويش! ونجد فيهم الإسلاميين أمثال: أحمد محرم، ووليد الأعظمي!

وإذا كان بعضهم عاش مُلتفاً حول نفسه وحجرته فقط كعبد الحميد الديب، فإنّ البعض الآخر حلّق بجناحيه في سماء الأُمة بأسرها كعبد الرحمن العشماوي!

- وإذا كان بعضهم مهموماً بمصيبة بلده فقط، مثل السماوي مع العراق، ومحمود مفلح مع فلسطين .. فإنّ البعض الآخر ظل شاهراً سيفه في كل الجبهات كحافظ إبراهيم، وأحمد مطر!

- وإذا كنا نجد فيهم الشعوبيين والثوريين والبعثيين أمثال: بلند الحيدرى، ومظفر النواب .. فإننا نجد فيهم أيضاً العلماء والفقهاء أمثال: الشيخ الغزالي، والشيخ يوسف القرضاوي !

- وإذا كان أكثر شعراء الرفض أو الشعراء المناوئين قد أُودِعوا السجون أو عاشوا في المنافي مثل: الجواهري، والسماوي، وأحمد مطر، ومحمود الدغيم .. فإنّ منهم من عاش عزيز الجانب موفور الكرامة أو شغل مكاناً بارزاً في الحياة السياسية مثل: الشريف الرضي، والمتنبي، والمنفلوطي، وعبد الولي الشميري!

- في الوقت الذي نجد عامة هؤلاء المعارضين ذوي حظ واسع من الشهرة والدويّ كعمرو بن كلثوم، والكميت، وحافظ إبراهيم، وسيد قطب .. فإننا في المقابل نجد البعض حُرِمَ من هذا الضجيج، وانحسرت شهرته مثل: إسماعيل

شعشاعة، وعصام الغزالي، وخالد سليم، وعبد الحسيب الخناني!

- وإذا كان أغلب شعراء المعارضة من الرجال كمن أشرنا إليهم .. فإننا رأينا - أيضاً- الشاعرات المعارضات أمثال: فدوى طوقان، وعليّة الجعار، ونوال مهني، وسعيدة خاطر!

- وإذا كان بعضهم عاش حياة مديدة ورُدَّ إلى أرذل العُمُر، مثل البرد وني، والجواهري. فإن منهم من طُويت صفحته على عجل ومات مبكراً مثل: الشابي، وهاشم الرفاعي، وغيرهم.

- ومنهم من كان رافضاً دائماً، ومعارضاً إلى آخر الخط، وعلى طول الطريق: كالكميت، ودِعبل، وأمل دنقل، وأحمد مطر، ويحيى السماوي، وسميح القاسم. ومنهم من كانت (المعارضة) موقفاً أو حادثة في حياته مثل: عمرو بن كلثوم، والفرزدق، والمتنبي، وفاروق جويدة، وعصام الغزالي، ومحمود خليفة غانم .. وغيرهم.

***

بعد هذا الرسم الكاريكاتوري لطبيعة شعراء المعارضة، والعرض السريع للخصائص الزمانية والمكانية والاجتماعية والنفسية لشعراء المعارضة في مختلف البيئات والعصور .. فإنني أرجو أن أكون قد نجحتُ في تشخيص حالتهم النفسية وطبيعتهم الحياتية، أوْ لعلّي أصبتُ جانباً من الحقيقة، أوْ اقتربتُ بعض الشيء فيما صبوتُ إليه، أوْ دنوتُ مما كنتُ أرغب في تبيانه فخانني التعبير!

جدير بالذكر، أن ننبه -القارئ- قبل إقدامه على قراءة «الفصل التالي» بأننا عمدنا إلى كتابة «مقدمات» عن هؤلاء الشعراء، كالحديث عن جانب من جوانب السيَر الذاتية لبعضهم، والتعرّض لبعض الإشكاليات في حياتهم أو في شعرهم وقصائدهم، كما حاولنا عقد المقارنات النقدية فيما بينهم ... فإذا كانت هذه

«المقدمات» لا تُرضي القارئ، أو قد تتعارض مع وجهة نظره، فهذا من حقه المكفول شرعاً وعرفاً، فإنني لم أقل -ولا ينبغي لي أن أقول- إنَّ رأيي صواب لا يحتمل الخطأ! ولم أزعم أن هذا هو الكلام الأخير، ولم أدَّعِ أنني أتيتُ بما لم يستطعه الأوائل، فميدان الأدب تتضارب حوله الآراء، وتتباين في شأنه الرؤى، وتختلف فيه وجهات النظر أكثر مما تختلف في شيء غيره .. ورحم الله امرءًا أهدى إلينا عيوبنا.

الآن .. لا يبقى أمامنا سوى قراءة نماذج حية لهذه القصائد السياسية الغاضبة التي خلّفها الشعراء الفحول، والتي عانوا منها أشدّ المعاناة، وتحمّلوا من أجلها ما لا يُحتمل، ودفعوا في سبيلها ثمناً باهظاً .. وبذلك أطلقنا عليها (قصائد لها تاريخ)!